

سكينة الشهابي

النسوة اللواتي نزعن الحافظ الربيع ساكر

في تاريخ دمشق ومنهجيته في عرض أخبارهن

يترجم
ابن عساكر في تاريخه الشهرة من الدمشقيات ،
ومن اللواتي وردن دمشق ، أو اجتزن بنواحيها •
وتمتد هذه النواحي حتى تشمل مساحة كبيرة حول
مدينة دمشق • وقد تطول الترجمة أو تقصر •

ومفهوم الشهرة عند ابن عساكر في أخبار النساء لا يختلف عنه في أخبار الرجال ، اللهم الا فيما يخص طبيعة كل من الجنسين • والشيء الذي يمتاز به بين المصنفين أنه يتحلى بروح علمية بعيدة عن التعصب ، ولذلك فانه يختار لتاريخه كل من أرادت له الحياة أن يبقى خالداً في قول أو فعل ؛ ولهذا فاننا نجد في التاريخ ترجمة لكل من له ذكر من الرجال والنساء • وكثير من النساء ذكرتهن كتب التاريخ والأدب لجمالهن ولاعجاب الرجال بهذا الجمال ، وهذا يكفي وحده سبباً في دخول المرأة تاريخ دمشق • قد يبدو مثل هذه الأخبار تافهاً في أعين عدد كبير من الناس ، ولكنه يأتي من الأهمية بمكان في تفسير كثير من الحقائق التاريخية (١) •

ولا تطول الترجمة ويستفيض الحديث الا اذا كانت المرأة صحابية معروفة في الرواية ، وهنا يجول المصنف جولته في جمع الأحاديث التي روتها مستقصياً

في ذلك الطرق^(٢) ، والا اذا كانت صحابية لها دورها في بدء الدعوة ، وعندها لا يكثر من نقل ما روته عن النبي ، صلى الله عليه وسلم فقط ، بل يفيض في سرد أخبارها كلها على ما هو معروف عنده في نقل الأخبار ؛ يذكر اسم المترجمة ونسبها وبعض الأحاديث من روايتها ، وخلقها وخلقها وشيئاً من علاقاتها الاجتماعية والسياسية ، ثم وفاتها . ولا ينسى بعد ذكر اسمها أن ينقل خبراً يبين سبب ترجمتها في تاريخ دمشق^(٣) . وكثيراً ما يكون جمع الطرق في الخبر الواحد سبباً في طول الترجمة ، وهذا نجده في الأخبار الأدبية ، كما نجده في الأحاديث النبوية . ولعل أخبار سكينه بنت الحسين ما كنا نجدها بهذا الطول لولا حرص المصنف على رواية خبرها مع الشعراء من كل الطرق التي تهيأ له الوصول إليها .

ومثل الذي قلناه في أخبار سكينه نقوله في أخبار عائشة بنت طلحة ، فقد كانت عائشة جميلة ، ولمصعب بن الزبير معها أخبار معروفة ، ويحرص ابن عساكر كمادته دائماً على تقليب بعض أخبارها المشهورة ، وجمع كل الطرق التي استطاع الوصول إليها في تلك الأخبار^(٤) .

والشهرة في الحياة تكون دائماً نتيجة للتفوق في شيء منحه الله للانسان ، خصه به بين باقي بني جنسه ؛ فقد كانت شهرة عائشة بنت طلحة بالفضل والجمال والفصاحة ، وكانت شهرة سكينه بنت الحسين بالجمال والفصاحة والأدب ، وخصها الله باحساس فني جعلها تميز فيه بين قول شاعر وشاعر ، وتحكم لبعضهم بالتفوق ولاخر بالتخلف . وكذلك امتازت أسماء بنت أبي بكر بالجزالة ورباطة الجأش ، والدمغ بالحجة القوية ، ورجاحة التفكير في المواقف الصعبة التي تتزعزع فيها ارادة الانسان ، ويفلت من يده زمام تفكيره . هذه المزايا التي ذكرها التاريخ للنساء الشهيرات أبرزها ابن عساكر بقوة حين عرض علينا ما قرأه وسمعه وحفظه ؛ ولم يبين لنا رأيه في كل ما سمعه وقرأه وحفظه ، بل تركنا أمام الماضي كله لنقول ما نشاء ، بل لنفهم كل شيء على حقيقته ، ومن بعد ذلك يكون قولنا مستمداً من واقع الأخبار والآثار . كان ابن عساكر شيخ المؤرخين والموسوعة الكبيرة التي استوعبت كل شيء ، فلم يعطنا قولاً ولكنه أعطانا كل ما قيل ، ولم يقدم لنا رأياً ولكنه ترك لنا الحرية في أن نرى ما نشاء ، وكأنه كان يقول : هذا

المتن وهذا السند فانظروا في أحوال الرجال ، واحكموا على صحة الخبر .

وانطلاقاً من هذه النزاهة العلمية ، والروح المحايدة في عرض الأخبار وتصنيفها ترجم ابن عساكر « سلامة القس » ، و « عريب المأمونية » ، فقد قيل انهما مرتا بدمشق ، اننا نذكر بامتنان ابن عساكر حين نقرأ لعريب هذا الشعر الكثير الذي حال ضياع المصنفات العربية بينه وبين الوصول إلينا . كل الذي روته لنا الكتب المعروفة من أخبار عريب كان نتفاً قد يضم بعضها أبياتاً قليلة من الشعر . وقد شفى غليننا ابن عساكر حين روى لنا من غزلها ووصفها ومديحها قصائد نفيسة قرأها في كتب لعل حوادث الأيام ، وما ألم بالأمة العربية من إحزن قد جعلها أثراً بعد عين

وقد نظن ونحن نقرأ تراجم قريبات المصنف - : زوجته ، زوج أخيه ، ابنة خالته - أن مثل هؤلاء ليس في خبرهن ما يهم المؤرخ الباحث من قريب أو بعيد ، وأنهن لو لم يكن قريباته لما ورد لهن ذكر في التاريخ^(٥) . ولكن خطأنا هذا يتبين حين نتذكر رغبة المصنف في الاستقصاء ؛ فهو يدخل في تاريخه كل اللواتي لهن ذكر ممن وردن دمشق ، أو اجتزن بها ، أو كن من ساكناتها . وأي ذكر أفضل من رواية الحديث ، وسماع الكتب الصحيحة؟!

ولكن رغبة المصنف في الاستقصاء قد تدعونا إلى العجب حين نقرأ ترجمة « أمنة ذات الذنب »^(٦) ، وكأن المصنف حين ساق خبر هذه المرأة ما كان يريد ألا أن يلون في عرض الأخبار ، أو أن نزعة جاحظية ألت به فجعلته لا يروي خبر هذه المرأة في ترجمتها فقط بل يعيده من طريقه مرة أخرى^(٧) ، مما يؤكد لنا حرصه على هذا النوع من الأخبار ، وأنه كان يقصد إلى ذلك قصداً .

وقد احتفى ابن عساكر أيما احتفاء بأخبار المتصوفات ولملم أقوالهن ، وتحدث عن تقشفهن وزهدهن ، وفضلهن في ذلك على كثير من بليغات العرب ، ومن عرفن بالجرأة والفصاحة^(٨) . وبعض هؤلاء الزاهدات كن شيخات له^(٩) ، أو ممن حدثه عنهن شيوخه^(١٠) .

ولعل ما عرف به ابن عساكر من زهد وتقشف وانصراف عن متاع الدنيا جعله يحسن انتقاء أخبار العابدات الزاهدات ، ويجعلنا نصغي إلى مواظهن

وأقوالهن ونحن نحس بمتعة روحية ، ورياضة نفسية يتغلب بها فينا المعنى الانساني على القالب المادي فننسى متاعب الحياة وهمومها ، ونسخر كما سخرن من قشورها ومظاهرها . ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن عساكر في أخبار أم الدرداء ، قال : « عن أم الدرداء أن رجلاً أتاه فقال لها : إنه قد نال منك رجل عند عبد الملك ، فقالت : ان نؤبن بما ليس فينا فطالما زكينا بما ليس فينا » . وقال : « عوتبت أم الدرداء ، في شيء ، فقيل لها : لِمَ فعلت كذا وكذا ؟ قالت : نقص الناس فنقصت كما نقصوا ! » . وروى « عن اسماعيل بن عبيد الله قال : قالت لي أم الدرداء : يا بني ، ما يقول الناس في الحارث الكذاب ؟ قال اسماعيل : يا أمة ، يزعمون أنك قد بايعته ! قال : فلم تسل أم الدرداء من الذي قال لئلا يكون في صدرها غل على أحد » .

وانما ذكرت هذه الأمثلة لأبين للقارئ الكريم معنى الصوفية كما فهمها الانسان المسلم ، انها التسامح ، والمحبة ، والتواضع . . الى غيرها من الصفات الكريمة التي جاء بها القرآن ، وحث عليها الرسول ، صلى الله عليه وسلم . ومثل هذه الأقوال التي تأخذ بمجامع القلوب نجده مبثوثة متفرقة في أخبار عدد من الصوفيات اللواتي فهمن الطاعة بمعناها الحقيقي ، وقدرن أبعاد خطواتهن في هذه الحياة (١١) .

ولكن حب الاستقصاء قد يطفئ في كثير من الأحيان على حسن الانتقاء ، فنجد في أخبار هؤلاء النسوة ما يدعو الى الابتسام لأنه تجاوز حد المعقول ، وبالغ في البعد عن الواقع .

وفي أخبار النسوة القرشيات سواء كن زوجات لبني أمية أم لغيرهم ، صورة صادقة للحياة السياسية والاجتماعية في ذلك العصر ، نجد فيها وضع المرأة الاجتماعي وعلاقتها بالرجل . وجرأتها في الدفاع عن حقها ، والحفاظ على ما في يدها ، واستقلالها في تصريف شؤونها ، ومشاركتها في كثير من القضايا السياسية والاجتماعية ، وهذا لا ينطبق على القرشيات فقط ، ولكننا نجد نماذج له في أخبار كل النساء الحرائر . وما أكثر النسوة اللواتي جئن الى معاوية يرفعن اليه مظالمهن ، ويطلبن اليه العدل . وكم من امرأة كانت في جيش عليّ تحرض على القتال حتى اذا تبدل الحال ، وعلام معاوية عرش الخلافة استدعى من شاء

منهن مكرمات ليستعيد أقوالهن ، وليسمع رأيهن فيه وفي سلفه . ومهما كانت هناك من مبالغات في أقوالهن ، وأخبار جرأتهم وفصاحتهم فان تلك الأقوال والأخبار تؤكد لنا أن المرأة كانت تؤلف فعلاً نصف المجتمع ، وأنها عاشت حياتها كاملة ، ولعبت في الحياة السياسية والاجتماعية دوراً كبيراً لا يقل عن دور الرجل ، حتى اننا نجد الواحدة منهن تتجشم عناء السفر ، لتدخل على معاوية في شأن من الشؤون ، وحين يذكرها بمناصرتها العلي لا نجدنا مضطرة الى كلمة نفاق واحدة ، بل انها تبدي رأيها بكل قوة وجرأة ، أهو تسامح الخليفة ، أم شجاعة المرأة ، أم أنها الفطرة السليمة ، والتربية الاسلامية الصادقة ؟ وأجدني مضطرة الى أن أقتطع نتفة من خبر أم البراء^(١٢) بنت صفوان مع معاوية علّ ما فيه من طرافة يكون حافزاً على مراجعة الخبر بتمامه .

دخلت أم البراء بنت صفوان على معاوية فذكرها بشعر قالت في حربه مع علي وكانت هذه المرأة أكثر اعتدالاً من الزرقاء^(١٣) بنت عدي ، وعكرشة بنت الأطش^(١٤) ، وأم الخير بنت الحريش^(١٥) ، فقالت : « يا أمير المؤمنين عفا الله عما مضى ومن عاد فينتقم الله منه » . وحين قامت لتخرج ، « عثرت بثوبها ، فقالت : تَعَسْ شأنيء علي ! فقال لها معاوية : يا أم البراء ، زعمت ألا . . قالت : هو والله ما تعلم ! وخرجت ، فبعث اليها بمال » .

وهذه سودة بنت عمارة بن الأسك دخلت على معاوية متظلمة من واليه . فأسمعت ما أسمعت من بليغ القول ، حتى اذا أراد انصافها دون قومها بكى ، وذكرت علياً ، رضي الله عنه ، فقد دخلت عليه تشكو والياً جار وظلم ، فأكرمها ، وأعادها بكتاب تعزل فيه ذلك الوالي ، فقضى معاوية حاجتها ، ولم تدفعه جرأتها الى أن يجور في حكم ، أو أن يغبن امرأة متظلمة^(١٦) .

وقريب من خبر سودة هذه خبر امرأة ذكوانية وفدت على معاوية متظلمة من أخيه زياد بن أبي سفيان ، فقضى حاجتها وردّها مكرمة^(١٧) .

وفي كل خبر من أخبار النساء العربيات صورة صادقة للحياة الاجتماعية ، والسياسية ، واذا خصصنا القرشيات دون غيرهن استطعنا أن نكشف حياة طبقة من طبقات المجتمع العربي بيدها السلطة ، وعرفنا جانباً من تلك العلاقات بين الأسر

العربية المتدانية القرابة ، وكيف كانت المرأة العربية في ظروف معينة تغلب عندها العصبية حتى إنها لتحس بنوع من الكره لأبنائها لانهم يشكلون جانباً من قوة زوجها وأقربائه . نجد مثل هذا في خبر رملة بنت معاوية ، وكانت عند عمرو بن عثمان بن عفان ، فقد « كتبت الى ابيها تشكو آل أبي العاص وأنهم يتكبرون علي حتى وددت أن ابني كان منبوذاً في البحر . فكتب اليها معاوية : أنا أشقى من أن تكوني رجلاً . قال : وعزل مروان عن المدينة » . لقد تغلب تعصب رملة لأبيها وآل أبي سفيان على حبها لزوجها وابنائها . وفي خبر آخر يرويهِ ابن عساكر عن مصعب الزبيري أنها قدمت الى أبيها فقال لها : « واسوأته ! وما للحرّة تطلق ، أطلقك عمرو !؟ فأخبرته الخبر ، وقالت : فما زال يعد فضل رجال بني أبي العاص على بني حرب حتى ابني عثمان وخالد ابني عمرو فتمنيت أنهما ماتا (١٨) » .

ويبدو أن خلافة معاوية لم تكن خيراً على بناته ، بل كانت سبباً غير مباشر في تدمير حياتهن الزوجية ، فقد أخبرنا ابن عساكر أن معاوية زوج عبد الله بن عامر بن كريز ابنته هنداً (١٩) ، وكانت بارعة به ، « فجاءته يوماً بالمرأة والمشط ، وكانت تتولى خدمته بنفسها . فنظر في المرأة فالتقى وجهه ووجهها في المرأة ، فرأى شبابها وجمالها ، ورأى الشيب في لحيته قد ألحقه بالشيوخ ، فرفع رأسه اليها فقال : الحقي بأبيك ، فانطلقت حتى دخلت على أبيها ، فأخبرته بخبرها ، فقال وهل تطلق الحرّة ؟! قالت : ما أتي من قبلي ! وأخبرته خبرها ، فأرسل اليه ، فقال : أكرمتك بينتي ، ثم رددتها علي ؟ قال : أخبرك عن ذلك : إن الله منّ عليّ بفضلته ، وخلقني كريماً ، لا أحب أن يتفضل عليّ أحد ، وإن ابنتك أعجزتني مكافأتها لحسن صحبتها ، فنظرت ، فإذا أنا شيخ ، وهي شابة ، لا أزيدها مالاً الى مالها ، ولا شرفاً الى شرفها ، فرأيت أن أردّها اليك لتزوجها فتى من فتيانك كأن وجهه ورقة مصحف » .

وأخبار النساء العربيات ، والقرشيات منهن بشكل خاص يمكن أن تلقي ضوءاً على كثير من القضايا الاجتماعية التي ما زالت تشغل فكر الانسان العربي ، وأهمها حرية المرأة ، يريد أن يعرف الى أي درجة كانت تتمتع المرأة بهذه الحرية ، وكيف كانت علاقتها بالرجل . ويقيني أن هذا العرض للأخبار بأسانيد الى

كتب معروفة يمكن أن يرينا بالفعل لا بالقول أن المرأة كانت تغالط الرجال، وتجلس اليهم ، وتحديثهم ، وتبدي رأيها في كثير من القضايا، وتعرف أهمية الرجل الفاضل فتختاره ، وترسل من يخطبه لها (٢٠) . وإذا كانت مراجعة هذه الأخبار تغني الباحث عن العودة الى كثير من الكتب فان فيها من الحقائق التاريخية ، والنوادر الأدبية ما لا نجده في مصدر آخر لأن الكتب التي بين يدي المؤلف قد أتى عليها الزمن ، وحفظ لنا ابن عساكر قطعاً نفيسة منها لا يمكن أن يفيد في موضعها سوى أصل الكتاب الذي كان ينقل منه . وهيئات !

ويمكننا بعد الذي تقدم أن نقول : ان نساء ابن عساكر وضعن بين أيدينا طرفاً من الحياة الاجتماعية والسياسية ، والأدبية والدينية عبر خمسة قرون من تاريخ الحضارة العربية ، بالإضافة الى أخبار وقصص عن القرون الأولى من الحضارة الانسانية نجدها في تراجم الكاهنات والقديسات والملكات من أمثال بلقيس ومريم وسارة وهاجر . وكانت أخبارهن مطبوعة بطابع التشويق ، يحس قارئها بالمتعة وهو يضيع في متاهاتها ، لا يشعر بالملل مع طول الخبر ، لأن طول الخبر تلازمه الطرافة والندرة دائماً .

وقد وجدنا أن بين هؤلاء النساء الأديبات، والشاعرات والمحدثات، ومنهن من عرفت بخبر نادر ، أو ملحّة لطيفة . ولكن منهن ذكر في كتب النسب والتاريخ، لأنهن عربيات من ذوات الحسب والنسب . وبعضهن كن زاهدات ، متعبدات ، وكانت حفاوة المصنف بهن كبيرة ، لأن الزهد والعبادة ، ومعرفة الله من أكبر الميزات التي تفتح باب التاريخ على مصراعيه أمام المترجمات ، ولذلك فقد احتلت أخبار التصوف والزهد جانباً كبيراً من تراجم النساء في التاريخ الكبير .

وإذا كنت قد أطلت الحديث عن النساء اللواتي ترجمهن ابن عساكر فقد كانت اطالة لا بد منها لازالة تلك البقع الصفراء من صفحة ناصعة البياض ، مزدانة بحروف زاهية تؤلف ملحمة للكرامة ، والعزة ، والاباء ، والأنفة . تمثل دور البطولة فيها الأم العربية بشكل خاص ، والمرأة العربية بشكل عام .

سكينة الشهابي

الهوامش :

- ١ - يحدثنا التاريخ أن عبد الملك بن مروان حدد المهور بأربعمائة درهم ، والسبب في ذلك أنه خطب زينب بنت عبد الرحمن المغزومية فجاء من أخرى والدها بزيادة في المهر قبل أن يصل هذا الوالد إلى عبد الملك الذي أرسل في طلبه ليخطب عليه ابنته . عندها قال عبد الملك ما معناه: أن فضليات النساء تذهب بهن كثرة المهور . انظر (ت ٣٤) من أخبار النساء في تاريخ دمشق .
- ٢ - انظر (ت ١٦ من أخبار النساء في تاريخ دمشق) .
- ٣ - انظر ت ١ من أخبار النساء .
- ٤ - انظر ت ٦١ من أخبار النساء .
- ٥ - انظر ت ٢ ، ١١ ، ٦٢ .
- ٦ - انظر ت ١٢ .
- ٧ - انظر ت ١٦٥ من أخبار النساء .
- ٨ - انظر ت ١٤٥ .
- ٩ - انظر ت ٣٨ ، ١١١ .
- ١٠ - انظر ت ١٤ .
- ١١ - انظر أمثلة أخرى في ت ١١٢ .
- ١٢ - انظر ت ١٣٠ .
- ١٣ - انظر ت ٢٨ .
- ١٤ - انظر ت ٧٢ .
- ١٥ - انظر ت ١٤٤ .
- ١٦ - انظر ت ٤٥ .
- ١٧ - انظر ت ١٨٠ .
- ١٨ - انظر ت ٢٣ .
- ١٩ - انظر ت ١٢٤ .
- ٢٠ - انظر ت ١٥٢ .

★ ★ ★